الشخصيّة المحمّديّة في الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ
(حتى نهاية القرن ١٨)

م.د حيدر مجيد حسين العليلي[١]

المقدّمة

تعدّ الشخصيّة المحمّديّة موضعَ اهتمام الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ؛ حيث اهتمّ المستشرقون البريطانيّون بهذه الشخصيّة وأكثروا التأليف عنها، ما أتاح للباحث أن يتتبّع مراحل تكامل الصورة المحمّديّة في حقبات مختلفة من مسيرة الاستشراق البريطانيّ.

وبناءً عليه، يهدف البحث إلى تتبّع تبلور الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ بشأن الشخصيّة المحمّديّة منذ القرن السابع الميلاديّ حتى نهاية القرن الثامن عشر المتمثّل بعصر الكاتب إدوارد جيبون (Edward Gibbon) (١٧٣٧ - ١٧٩٤م)، وهي الحقبة التي سبقت عصر ظهور المؤلّفات الأصليّة للسيرة النبويّة في القرن التاسع عشر الميلاديّ؛ التي عكفنا على تصنيفها وبيانها تبعًا للملامح المنهجيّة والأيديولوجيّة لكلّ عصر مع الأخذ بالحسبان الفواعل المستحدثة لإنتاج الخطاب الاستشراقيّ ورصد التجلّيات المفاهيميّة والتاريخيّة التي أنتجها في نسق تاريخيّ تتابعيّ.

ولأجل الوصول إلى نظرة شاملة حول الشخصيّة المحمّديّة في الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ تمّ توزيع البحث على أربعة محاور جاءت كالآتي:

- الخطاب المسيحيّ المعاصر لظهور الإسلام
- الشخصيّة المحمّديّة وملامح التبلور المشوّه في المخيال البريطانيّ
- الخطاب التخصّصيّ وعصر الصراعات السياسيّة والأيديولوجيّة

١. كلية التربية للعلوم الإنسانية - جامعة المثنى.

ـ عصر الانفتاح على التراث الإسلاميّ (المرحلة الاحترافيّة)

أوّلًا: الخطاب المسيحيّ المعاصر لظهور الإسلام

لعلّ الإشارة الأقدم عن الإسلام في الأدب الكنسيّ المسيحيّ وردت في كتابات القس آيسدور (Isidore) (٥٦٠-٦٣٦م) رئيس أساقفة مدينة أشبيلية الذي يعدّ آخر باحث في تاريخ العالم القديم[١]، وكان معاصرًا للرسولﷺ، وأسهمت مدوّناته في بلورة الصورة الأوّليّة عن الإسلام في المخيال المسيحيّ عادًّا الإسلام عدوًّا للمسيحيّة وليس هرطقة وثنيّة ضدّ المسيح[٢]، وقد ظلّت كتاباته وآراؤه مصدر إلهام للكتّاب المسيحيّين لقرون طويلة[٣]، كما أورد المؤرّخ الأرمنيّ سيبيوس (Sebeos) الذي كان معاصرًا للرسولﷺ (٣٢٦-٦٦١م): «أنّ رجلًا اسمه محمّدًا من أصول إسماعيليّة، ادّعى النبوّة وعلّم أبناء بلده العودة إلى ديانة إبراهيم»[٤].

ويبدو أنّ الكتابات المبكرة حملت بين طيّاتها رؤية عدائيّة[٥]، ومنها رسالة رجل يُدعى جوستوس (Justus) إلى شقيقه أبراهام (Abraham) في ١٦ تموز ٦٣٤م، أي بعد سنتين من وفاة الرسولﷺ، يخبره أنّ نبيًّا مخادعًا ظهر وسط السراسنة، معربًا عن دهشته بقوله: «هل بُعث الأنبياء بسيف وعربة حرب؟... أنّكم سوف لن تعرفوا أيّ شيء حقيقيّ عن هذا النبيّ سوى إراقة الدماء»[٦].

وفي المدّة ما بين عامي (٦٣٤-٦٤٠م) أعرب القس البيزنطيّ ماكسيموس (Maximus the Confessor) عن ذهوله من انتشار الإسلام في رسالة كان قد بعثها إلى زميله القس بيتر

1. Melrose, The Druids and King Arthur A New View of Early Britain, 53.
2. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 38.
3. Ibid.
4. Arthur, The Quest of the Historical Muhammad The Muslim World, xvi: 330; Thomson, Historical, Commentary by James Howard-Johnston Assistance The Armenian History, Attributed to Sebeos, 49-53.
5. Walter, “Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest”, 142-145.
6. Ibid.

(Peter the Illustrious)، وأشـار بقوله: «لا يوجد اسـوأ من انتشار الشرّ بين سكّان العالم»[١]، وفي نهاية القرن السابع الميلاديّ أشار القس أناستاتيويس (Anastasius) إلى الأحوال العسكريّة للمسلمين معربًا عن مدى سعادة البيزنطيّين باندلاع الحرب الأهليّة بين صفوفهم»[٢].

ولعلّ كتابات هذه الحقبة لم تكن تحمل بين دفّتيها غايةً لفهم الإسـلام أو التعرّض لمضامينه بقدر تعلّق المسـألة بطبيعة الخطاب الدينيّ للكنيسـة الذي كان يتعـارض مع كلّ عقيدة تظهر خارج حظيرة المسيحيّة الكاثوليكيّة[٣].

ويبدو أنّ الإسـلام قد شكّل مشـكلة لأوروبا حال ظهوره ونظرت إلى المسلمين على أنّهم أعداء يتسـوّرون حدودها[٤]، فقد كان العصر الوسـيط حقبة الجهل المتـأتّي إمّا من ضيق الأفق بالبعدين الفكريّ والجغرافيّ أو الجهل الناجم عن أوهام مخيّلة متّسعة[٥]، لقد كان الإسلام بالنسبة للكنيسة رقمًا في قائمة الأعداء الطويلة، ولم يكن هؤلاء على استعداد للتمييز بين وثنيّة الأوربيّين الشماليّين وتوحيد الإسلام، لقد انحصرت جهود المؤلّفين اللاتين في الفترة من (٧٠٠-١١٠٠م) باسـتنطاق الكتاب المقدّس لمعرفة أصول السراسين أو السراسنة[٦] ضمن مدارج السلالات في

1. Ibid, 142-145.
2. Ibid.
3. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 38.
4. Hourani, Islam in European Thought, Cambridge University, 225.

٥. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٤٩-٥٣.

٦. السراسـنة أو السراقين (Saracens) أو (saraceni) كما تترجم من اليونانيّة و(saracenes)، عبارة استعملها اللاتين على هذه الصورة (saracenus)، وذلك في معنى العرب، وأطلقوها على قبائل عربيّة كانت تقيم في بادية الشـام وفي طور سيناء، وقد توسّع مدلولها بعد الميلاد، فأطلقت على العرب عامّة قد أطلق بعض المؤرّخين من أمثال «يوسبيوس» أويسـبيوس (eusebius) وهيرونيمـوس (Hieronymus) هـذه اللفظة على «الإسـماعيليّين» وبعضهم يرجعها إلى الإغريق الذين أطلقوا على العرب عبيد سـارة زوجة إبراهيم(ع) وما يؤكّد هذا الرأي إشـارة بعض الباحثين إلى أنّ الكلمـة تتألّف من مركب «سرا» و«قين» التي تعني عبيد-سـارة، يعلّق سـتروب (Stubbe) على هذه العبارة بقوله «لا يمكن أن يُدعى العرب بالسراسـنة نسبة إلى سارة أو عبيد سارة، بل الصحيح أن يطلق عليهم الهاجريّين نسبة إلى هاجر أو الإسـماعيليّين نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم» (للمزيد ينظر: عليّ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١: ٢٦-٢٩).

Stubbe, Account of the Rise and Progress of Mahometanism, 106; Mansour, Narrow Gate

العهـد القديم ومعرفة مكانتهم بين شـعوب العالم وديانتهح لأن الكتـاب المقدّس كان الأداة الفكريّة الوحيدة الفعّالة في أوروبا في مطالع العصور الوسطى[١].

وفي هذه المرحلة عقد البطريرك سوفرونيوس (Sophronius) الصلة في كتاباته بين نصوص توراتيّة وبين ظهور الإسـلام عادًّا هجمات العرب السراسـنة عقابًا من الربّ للمسيحيّين على خطاياهم ونقضهم للمواثيق[٢].

ولعلّ مؤلَّفات يوحنّا الدمشقيّ المتوفّى في سنة ٧٥٠م تعدّ أبكر الدراسات المسيحيّة الشرقيّة عن الإسلام، ولا سيّما في مؤلّفه الجدليّ «مناظرة بين ساراتيّ ومسيحيّ» والذي قدّم حججًا ضدّ الطبيعة الإلهيّة للرسـالة المحمّديّة كالقول إنّه لم يبشّر بها الأنبياء السابقون وأنّ محمّدًا لم يقم بأيّ معجزة شـهيرة أو أعجوبة تثبت حقيقة نبوّته وأنّه من غير المـمكن أن يغـدو نبيًّا، باعتبار أنّ سلسلة الرسالات النبويّة خُتمت بيوحنّا المعمدان[٣].

لقد انتشرت في المسيحيّة الشرق أوسطيّة قصّة خرافيّة مؤدّاها أن محمّدًا كان في البداية تلميذًا للراهب النسـطوريّ سرجيوس أو «بَحِيرى الراهب في المصادر الإسلاميّة»، زاعمين أنّه تلقّى منه بعض المعلومات الأساسيّة عن التوراة والإنجيل، وبعد ذلك أعلن نفسه نبيًّا وكوَّن عقيدة خاصّة به، والواقع أنّ التصوّرات المـتكوّنة عن الإسـلام كبدعة مسيحيّة مرتدّة ومنشقّة وعن محمّد كنبيّ مزيّف انتقلت من مسـيحيّي سـوريا إلى البيزنطيّين ومنهـم إلى الأوروبيّين[٤]، أو أنّ الإسلام من اختراع محمّد والذي بدوره كان يوحى إليه من الشيطان، ومن جملة الأباطيل التي أفرزها هذا المخيال الجامح إظهار الرسولﷺ كأنّه «المسيح الدجّال» وجرى التأكيد على أنّه قد مات في عام ٦٦٦م وليس في عام ٦٣٢م وهذا العدد يطابق عدد الوحوش في التوراة أو العهد

Churches, The Christian Presence in the Holy Land Under Muslim, 31.

١. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى.

2. Walter, “Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest”, 142.

٣. شاخت، و بوزورث، تراث الإسلام، ١: ٦١.

٤. جورافسكي، الإسلام والمسيحيّة، ٦٣.

القديم[١]، بل ذهبت هذه الذهنيّة إلى تصويره وكأنّه كان كاردينالًا منشـقًّا عن الكنيسة هرب إلى شـبه الجزيرة أسّس هنالك كنيسته الخاصّة به المسـتوحاة من التوراة والإنجيل، ومن ثمّ جعل من يوم الجمعة يوم عبادة أسوة بيوم السبت لدى اليهود ويوم الأحد عند المسيحيّين[٢]، لقد كان للصيغ السـوريّة وأبرزها كتابات يوحنّا الدمشـقيّ أثر فاعل في بلورة الموقف السلبيّ الصريح إزاء الإسلام وصيرورة الإدراك الأوروبيّ في القرون الوسطى[٣].

ثانيًا: الشخصيّة المحمّديّة وملامح التبلور المشوّه في المخيال البريطانيّ

تزامن ظهور الإسـلام في شـبه الجزيرة العربيّة مع وصول المسـيحيّة إلى بريطانيّا في مطلع القرن السابع الميلاديّ، حين أعلن محمّدﷺ نبوّته في سنة ٦١٠م في الوقت الذي بلغت فيه بعثة القدّيس أوغسـطين إلى مدينة كينت (kent) البريطانيّة سنة ٥٩٧م[٤]، وهذا يحملنا على الاعتقاد بأنّ شخصيّة الرسـول كانت مألوفة في بريطانيا منذ بزوغها على مسرح الأحداث العالميّة، لقد شـهد القرنان السابع والثامن الميلاديّين توحيدًا لمناطق شـمال أفريقيا وحوض البحر المتوسط تحت سلطة المسلمين، ولم تكن تلك السيادة عسكريّة بقدر ما كانت تمثّل للعالم المسيحيّ خسارة لأهمّ مناطق الإيمان المسيحيّ، وهو أمر أدّى إلى أن باتت إحدى فواعل اندلاع الحروب الصليبيّة في العصور الوسطى[٥].

لكن على الرغم من أنّ المسـلمين كانوا يهدّدون نصف أوروبا ويجتاحون أقاليم كثيرة فيها، إلّا أنّ المعاصريـن لهذه الأحـداث كانوا أقلّ عـداء لهم من الأوروبيّين اللاحقـين، فالمؤلّفون البريطانيّـون كانـوا بعيدين عن مواقـع الخطر الإسـلاميّة[٦]، ويقف في طليعة هـؤلاء المؤرّخ

١. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٦٢.

2. Setton, Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish Doom, 5.

٣. جورافسكي، الإسلام والمسيحيّة، ٦٣.

4. Beckett, Anglo-Saxon perceptions of the Islamic World.

5. Elgamri, Islam In The British Broadsheets The Impact of Orientalism on Representations of Islam in the British Press, 3.

٦. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٥٤.

الإنكليزيّ بيـــد المبجل (Venerable Bede) (٦٧٣-٧٣٥م) الـذي يعدّ أوّل كاتب بريطانيّ ينـبري للكتابة عن الإسـلام[١]. انصبّ اهتمام بيـد المبجل في إيجاد الصلة بين ظهور الإسـلام ونصوص الكتاب المقدّس، ولم تخرج من تحت عباءته سـوى الخطابـات الهجوميّة والعبارات القاسـية بحقّ المسـلمين، إذ نظر إليهم على أنّهم وثنيّون برابرة وكسـالى، وقد ظلّت طروحاته أساسًا استندت عليه أوروبا في كتاباتها حتى القرن الثاني عشر الميلاديّ[٢].

كان بيد المبجل معاصرًا ليوحنّا الدمشـقيّ، وقد أشـار في كتابه (التاريخ الكنسيّ للشـعب الإنكليـزيّ) (Historia ecclesiastica gentis Anglorum) إلى أنّ أصل السراسـين يرجع إلى هاجر المصريّة زوجة إبراهيم الواردة في العهد القديم[٣].

أخـذ الكتاب البريطانيّون عـلى عاتقهم بين عام ١١٠٠م وعـام ١١٤٠م توجيه اهتمامهم صـوب حياة محمّدﷺ مـن دون أيّ اعتبار للدقّة، فأطلقوا العنان لجهـل الخيال المنتصر، فكان محمّد في عرفهم ساحرًا هدم الكنيسة في أفريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتّصالات الجنسـيّة. واستعملت أساطير من الفولكلور العالميّ ومن الأدب الكلاسـيكيّ ومن القصص البيزنطيّة عن الإسـلام، فقد اتّهم المسـلمون بعبادة الأوثان وهم الذين اتّهموا المسـيحيّ بتعدّد الآلهة والشرك. محمّد هو صنمهم الرئيسيّ، وكان معظم الشعراء الجوّالة يعتبرونه كبير آلهة السراسـنة[٤]، لكن بدرو دي ألفونسـو (Pedro de Alfonso) طبيب الملـك هنري الأوّل ملك إنجلترا يعدّ أوّل من صنّف في بريطانيا كتابًا يحتوي على معلومات لها بعض الموضوعيّة عن سيرة محمّدﷺ والإسلام في عام ١١٠٦م[٥].

ويشـير سـاوثرن بقوله: «أنّ الحملات الصليبيّة لم تجلب للغرب معرفة عن الإسـلام، بل أحدث العكس، إذ إنّ الأثر الأوّل للصدامات العسكريّة تجلّى في تردّد اسم النبيّ ودينه الإسلام

1. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 38.
2. Beckett, Anglo-Saxon perceptions of the Islamic World, 18.
3. Shihab, Examining Islam in the West, Addressing Accusations and Correcting, 63.

٤. شناخت وبوزورث، تراث الإسلام، ١: ٣٤.

٥. م. ن، ٣٥.

على الألسن منذ السنوات الأولى للغزو، وقد بحثت في المصادر الغربيّة عن اسم النبيّ قبل عام ١١٠٠م، فلـم أعثـر عليه غير مرّة واحدة خارج أسـبانيا وإيطاليا الجنوبيّة، أمّـا فيما بعد العام ١١٢٠م، فقد كان كلّ غربيّ تقريبًا يعرف من هو محمّد، لكن لم تكن صحيحة، كانت نتاج مخيّلة مغرقة في التوهّم وتسويغ الذات»[١].

لقد برزت صورة الإسـلام ليس كما قيـل نتيجة الحروب الصليبيّة بقـدر ما برزت نتيجة الوحـدة الأيديولوجيّة التي تكوّنت ببطء في العالم المسـيحيّ، وقـد أدّت هذه إلى رؤية أوضح لمعالم العدو كما أدّت إلى تضافر الجهود نحو الحروب الصليبيّة[٢].

لقد تكوّنت صورة الإسـلام ونبيّه لدى الغربيّين في النصـف الأوّل من القرن الثاني عشر الميلاديّ بعد أن أسهم في تركيبها الفرسان العائدون من الشرق والكهنة والرهبان، وقد زوّدوا المخيال الأوروبيّ بطرائف عن الإسلام ونبيّه وصلت هذه الصورة الخياليّة إلى المدارس والأديرة بعد وضعها في قالب مدرسيّ يشجّع على قبولها، أدّى ذلك إلى خلق انطباع شعبيّ مروّع في قدرته على البقاء ومقاومته لكلّ المعارف الصحيحة ونصف الصحيحة التي توالت فيما بعد عن سيرة الرسـول ﷺ[٣] واللافت في هذا الموضوع حالة التزامن بين ظهور الأقاصيص الخرافيّة عن حياة النبي محمّد ﷺ في العقود الزمنيّة نفسـها التي ازدهر فيه المخيال الأوروبيّ الشـطاح الذي أنتج القصّة الشـعبيّة الخياليّة والتاريخ الأسـطوريّ لبريطانّا بين (١١٠٠-١١٤٠م)، وجاء الشعر الشعبيّ ليردّد الصورة الخياليّة المتكوّنة عن الإسلام[٤].

إنّ صورة الإسلام المـتكوّنة في العصور الوسطى -وهي مزيج متناقض لمعارف موضوعيّة مع تشـويهات خطيرة- ضمّت في الوقت ذاتـه تصوّرات في منتهى الخياليّـة والتوهّم هيمنت بشـكل ثابت لمدّة تاريخيّة طويلة على عقل الإنسـان الأوروبيّ ومنطقه ومداركه إزاء الإسلام؛

١. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٦٥- ٦٦.

٢. شناخت وبوزورث، تراث الإسلام، ١: ٣١.

٣. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٦٥- ٦٦.

٤. م. ن.

ولهذا يمكن القول إنّ التصوّرات الغربيّة المعاصرة حول دين المسلمين لم تتكوّن وترتسم في صفحة بيضاء خالية، وإنّما انعكست في مرآة قديمة مشوّهة؛ إذ إنّ سكّان أوروبا المعاصرة ورثوا عن أسلافهم من القرون الوسطى مجموعة عريضة وراسخة من الأفكار حول الإسلام التي كانت تتغيّر تدريجيًّا مظاهرها الخارجيّة فقط تبعًا لتغيّر الظروف في أوروبا ذاتها، وتبعًا لطبيعة علاقاتها ومواقفها المستجدّة نسبيًّا مع البلدان الإسلاميّة وثقافاتها الحديثة[١].

ويبدو أنّ التصوّر النمطيّ المشوّه عن الرسول لم يتشكّل بسبب ضعف معرفة الأوروبيّين فحسب، بل يشير الدارسون إلى أنّ تصورات القرون الوسطى عن الإسلام ترتدّ إلى ثلاثة عناصر بنيويّة أسهمت في تشكيل هذه القوالب النمطيّة دون أن تتعارض فيما بينها، بل إنّها تعايشت وتداخلت من التأثّر والتأثير، وهي المكوّنات الميثولوجيّة واللاهوتيّة والعقلانيّة؛ لأنّ أدب أوروبا في القرون الوسطى حول الإسلام وُضع في غالبيّته العظمى من طرف رجال الدين المسيحيّين الذين استندوا إلى مصادر شديدة التمايز والتباين، كالحكايات الشعبيّة وقصص الأبطال والحجّاج والقدّيسين والمؤلّفات الجدليّة اللاهوتيّة الدفاعيّة للمسيحيّين الشرقيّين وشهادات بعض المسلمين وترجمات مفكّريهم وعلمائهم. ولكن كانت المعلومة المقدّمة تنتزع في معظم الحالات من سياقها الأصليّ، ومن ثمَّ تقدّم إلى القارئ الأوروبيّ، وبهذا الشكل شوّهت الوقائع بصورة متعمّدة وفي إطار البحث الحماسيّ عن حلّ سريع لمشكلة الإسلام[٢].

ويبدو أنّ الكتّاب البريطانيّون استقوا معلوماتهم في هذه المرحلة من مصدريْن هما الرِّوايات البيزنطيّة؛ ومن التواصل الشّخصيّ مع المسلمين خلال الحملات الصّليبيّة[٣]، وتنمو دائرة التخيّل في هذا المجال وصولًا إلى القول بأنّ الإسلام أخذ فكرة الثالوث المقدّس المسيحيّة الأقاليم الثلاثة، ولكن ضمن توجّه وثنيّ لا توحيديّ، ويزعم مروّجو هذه القصة أنّ محمّدًا واحدٌ من ثلاثة معبودات: أبولّين (Apollon)، تيرغافان (Trophonios)، وماهومت (Mahomet)، التي

١. م. ن، ٥٩.

٢. م. ن.

3. Arthur, The Quest of the Historical Muhammad The Muslim World, 331.

كان يُعتقد على نطاق شـعبيّ بأنّها معبودات المسلمين، وهي كائنات جنّيّة خفيّة أو ثلاثة أصنام كبرى، وهذا مـا جاء في أغنية رولان (Chanson de Rolland) التي ترجمت إلى الإنكليزيّة عام ١١٧٠م[١]، وتعبيرًا عن ازدرائهم قاموا بتحريف اسـم الرسولﷺ من محمّد إلى أكثر من ثلاثين اشتقاقًا محرّفًا وردت في قاموس (Twentieth century dictionary) وقاموس (New English) وتـأتي جميعها بمعنى النبيّ المزيّف بلغات أوروبا المختلفة القروسـطيّة أو بمعنى إله الظلام أو الإله المزيّف أو الصنم أو الشـيطان، أو للدلالة على الوثنيّة أو للدلالة على الأتراك في العصور الوسطى[٢].

كما شـاع في العصور الوسـطى أيضًا كلمة باهومت (Baphomet) الذي يرمز لإله خياليّ كان فرسـان المعبد المقدّس يبجّلونه ويقيمون لأجلـه طقوس العبادة، هذه الكلمة مأخوذة من لفظ محمّد المشوهة[٣].

إنّ تلك الأسـاطير المختلقة تمثّل سخرية مأساويّة؛ لأنّ محمّدًاﷺ الذي حارب أكثر من أيّ شخص عبادة الأوثان والذي حطّم جميع أصنام الكعبة بات في نظر المسيحيّين صنمًا!، بل الأنكى من ذلك أنّ بعض الأعمال الأدبيّة ذهبت إلى اعتبار محمّد إلهًا للعرب، وباتت كلمة (Mammet) المـأخوذة بدورها من (Mahomet) لتدلّل على معنى الصنم في تصوّرات المخيال القروسطيّ،

---

١. أغنية رولان (Chanson de Rolland) قصيدة غنائيّة فرنسيّة ظهرت في القرون الوسطى طوّرت وعدّلت مرّات كثيرة، فكان شكلها أكثر اكتمالًا من تحرير أكسفورد حوالي ١١٧٠م. موضوعاتها التاريخيّة تقوم على سرد الحكايات البطوليّة حول حروب كارل العظيم أو الكبير بكلّ هذه الملحمة الغنائيّة، (جورافسكي، الإسلام والمسيحيّة، ٦٦).

2. "Mahomet Mahoniery, Mahound, Macamethe, Machamete. Makomete, Makaniete, Machomete, Machomet, Machamyte, Macomite, Mahomette, Mahometite, Mahumet, Mahoved, Mumet Machometus, Mahumctus Mahometits, Maumet, Mahum, Mahun, Mahoune, Mahoun, Mahone, Mawhown, Machoun, Mahowne, Macon; Mahount, Mahowrde. Machound, Mauhound, MahutiMahont, Baphomet Mahomite, Murray", James, A New English Dictionary on Historical Principles: Founded Mainly on the Materials Collected by the Philological Society, 37-39; Davidson, Chambers' Twentieth Century Dictionary of the English Language Pronouncing, 545.

3. Brewer's Dictionary of Phrase And Fable, 73.

من ثمّ تطوّرت دلالتها إلى معنى لعبة أو العرائس[١].

وبهذا المعنى استخدمه الكاتب البريطانيّ وليم شكسبير في مسرحيّته روميو جوليت، حيث يقول:

«And then to have a Wretched puling fool, A whining MAMMET, in her fortunes tender, To answer I' ll not wed, I cannot love».

ومعناها التقريبيّ: وما بالك إذا كانت لديك حمقاء تعسة كالطفلة مثل دمية باكية، وهي في ظروف سعيدة وتجيبك: لن أتزوّج أنا لا أستطيع أن أحبّ[٢].

الإرهاصات المبكرة لتشكّل الهوية الاستشراقيّة البريطانيّة:

في منتصف القرن الثاني عشر الميلاديّ ظهرت ملامح مرحلة جديدة حملت بين طيّاتها نبرة من التعقّل في طبيعة المواقف من الإسلام وشخصيّة نبيّه، فقد ظهرت في بدايته تباشير نظرة علميّة شاملة كان من نتائجها انبثاق محاولات جديدة لرؤية الإسلام بدون أحكام مسبقة، وقد حدث ذلك في دير كلوني (cluny) في تموز ١١٤٣م[٣]، عندما شرع بطرس المبجل (Petrus Vernailes) (١٠٥٩-١١٥٦م) رئيس دير كلوني برعاية أوّل ترجمة للقرآن الكريم من العربيّة إلى اللاتينيّة على يد الإنكليزيّ روبرت كيتون (Robert ketton) ولعلّها تمثّل أوّل ترجمة كاملة للقرآن الكريم[٤].

ويمكن اعتبار بطرس المبجل مؤسّسًا للدراسات الإسلاميّة لدى مسيحيّي القرون الوسطى، انطلق بطرس المبجّل من مسلمة حتميّة الصراع مع الإسلام، ولكن ليس بالسيف وإنّما بالكلمة والإقناع والحجّة، فهو يرى المسلمين كهراطقة بالإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة، وذلك إذا تمكّن اللاهوتيّون والمبشّرون المسيحيّون من أن يظهروا لهم بشكل مقنع أين تكمن انحرافاتهم

1. Ibid, 66.

2. Shakespeare, and Others, The plays of William Shakespeare, Romeo and Juliet, 20: 184.

٣. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٨٠.

٤. جورافسكي، الإسلام والمسيحيّة، ٧٠.

وضلالاتهم[١]، وقامت مجموعة كلوني أيضًا بترجمة بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ وقامت بترجمة رسالتين جدليّتين بعنوان: «رسالة المسلم عبد الله بن إسماعيل الهاشميّ وجواب المسيحيّ عبد المسيح بن إسحق الكنديّ»، بيد أنّ ظهورها شكّل أيضًا نهاية لحقبة التعقّل هذه، فالمعاصرون لبطرس المبجّل لم يروا في الإسلام موضوعًا حقيقيًّا للدراسة المتأنّية وعلى أساس تلك الترجمات صنّف بطرس المبجّل ما أسماه بدحض العقيدة الإسلاميّة: (Liber Contra sect am sieve heroism Saracen rum).

إنّ المادة التي تضمّنتها المجموعة لم تستخدم أساسًا لمزيد من الدراسة المعمّقة عن الإسلام؛ إذ لم يكن أحد يهتمّ بمثل هذه الدراسة، فلم يظهر لها فائدة في الصراعات الجارية، لا سيّما وإنّ الجدل الدينيّ كان يستهدف مسلمين خرافيّين كانوا يبادون بسهولة الورق، ويبدو أنّ الهدف إنّما كان لتزويد المسيحيّين بحجج سليمة لتثبيت إيمانهم، ثمّ إنّ الحالة العقليّة للغرب اللاتينيّ لم تكن مشجّعة على الاهتمام بمذاهب دينيّة بحدّ ذاتها، كتلك التي كانت موجودة في الشرق[٢]، رغم ذلك فإنّ هذه المجموعة صارت بالنسبة للأوروبيّين المصدر الرئيس للمعلومات عن الدين الإسلاميّ على مدى خمسمئة عام تقريبًا[٣].

وجاء ظهور المغول إلى المسرح التاريخيّ الأوسع ليكون الفاعل الأوّل لتغيير أوروبا من نظرتها المتحاملة إزاء الإسلام في العصور الوسطى، فالمغول لم يكن لعقائدهم وزن فكريّ كما أدرك الأوروبيّون بوضوح كثرة المشتركات بين المسيحيّة والإسلام في المجالين العقديّ والأخلاقيّ، وإنّ غرابة وثنيّات المغول في القرن الثالث عشر وضعت القواسم المشتركة بين المسيحيّة والإسلام، ورغم أنّ هذه المعرفة المفاجئة سرعان ما ضاعت بين الحقيقة ومبالغات الخيال، فإنّها كانت حاسمة في تغيير نظرة أوروبا إلى الخارج، وفي منتصف القرن الثالث عشر شعر كثيرون أنّ الحملات الصليبيّة لا تملك حظًّا في النجاح، وأنّه لا بدّ من وسيلة جديدة وقد

---

١. م. ن.

٢. م. ن، ٧٠-٧٣.

٣. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٧٣.

أدرك أعداء الإسـلام أنّ الصراع العسكريّ معه لا يكفي لإسـقاطه، وأنّه لا بدّ من الاشتغال أعمق لفهم مضامينه وضرب إرادة الخصم عن طريق تشكيكه بصحّة عقيدته[١].

وقد لمع في هذه المرحلة اسم الفيلسوف البريطانيّ روجر بيكون (Roger Bacon) (١٢١٤–١٢٩٤م) الذي اسـتطاع وللمرّة الأُولى أن يضع المسيحيّة في موقعها الحقيقيّ جغرافيًّا وبشريًّا، وهو ما لم يكن ممكننًا بقوله: «هنالك مسيحيّون قليلون في العالم اليوم، أمّا سائر الأرض المعمورة فيغـصّ بالكفـار الذين لا يجدون أحدًا يهديهـم إلى طريق الحقّ، ويرى أنّ المسـيحيّة لن تنتشر وتنتصر بغير التبشـير السلميّ بعد الحروب الصليبيّة الفاشلة، غير أنّ المسيحيّة عاجزة في نظره عن القيام بهذه المهمّة لأسباب ثلاثة: لا أحد يعرف لغات الشعوب التي يُراد التبشير بينها، ولا أحد يعرف ماهيّة عقائد الكفّار الذين يُراد تبشيرهم، ولا أحد يملك حججًا مؤسّسة على المعرفة لدعوة غير المسيحيّين إلى الكاثوليكيّة»؛ لذلك تجده يورد ضدّ الإسلام حججًا وتشكيكات يراها كفيلة بنقضه، وهي في الحقيقة غير كافية لاستمالة المسلمين نحو المسيحيّة، لكنّها كانت جديدة، لقد كانت نظرة الغرب إلى الإسلام قبل بيكون تقوم على أنّه دين ذو دور سلبيّ في التاريخ فهو قد حال دون اعتناق الناس للمسـيحيّة، وهو أمارة ظهور المسـيح الدجال في سياق نهاية العالم وقيام القيامة، أمّا بيكون فإنّه رأى خلاف ذلك، وذهب إلى أنّ الحركة الإسلاميّة ليس لها أيّ دور تخريبيّ في العالم وليسـت أمارة للدجال أو القيامة، وله وظيفة يقوم بها قبل نهاية العالم قد تجاوز الكتاب المقدّس في مجال فهم الإسـلام الذي رأى فيه دينًا ذا صلة بالفلسـفة، وكانت مصادره عن الإسـلام من ترجمات الفلاسفة المسلمين وتقارير الرحّالة، متجاوزًا الأفكار المغلوطة عند اللاهوتيّين منذ القرن التاسع الميلاديّ[٢].

وفي القـرن الرابع عشر، سرعان ما تبدّلت المواقف من الإسـلام ضمن سـخرية العمليّة التاريخيّـة، فاسـتطاعت أن توقف حركات فكريّـة كبرى عن التأثير في المجـرى الحضاريّ في اللحظـة التي تبدأ فيها الحصول عـلى الشرعيّة المعقولة والدعم في ضمـن المجتمع، فمدارس

١. سوذرن، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ٨٧.

٢. م. ن، ٩٥–١٠٥.

اللغة الحيّة التي دعا لإنشائها بيكون وسواه من عام ١٢٥٠م بدأت تدخل في ضمن البرنامج الرسميّ للكنيسة الغربيّة منذ مجمع فيينا عام ١٣١٢م الذي قرّر تأسيسها في أكسفورد وباريس وسلامنكا، لتعلّم العربيّة والعبريّة والإغريقيّة، ولم تتوافر العناصر البشريّة والماديّة، ومات كلّ شيء دون أن يلحظ أحد حقيقة ما يجري، لقد كانت السنوات التي أعقبت مجمع فيينا حقبة حبلى بالخيبة في تاريخ أوروبا، وسط هذا الاضطراب المتفاقم لم تعد هناك قوّة ثقافيّة فاعلة مهتمّة بتحديد الموقف من الإسلام، أمّا عن الانفتاح المعجب الذي لقيته الفلسفة الإسلاميّة أبان القرن الثاني عشر حتّى منتصف القرن الثالث عشر، فقد حلّ محلّه عداء أصمّ بنحو تدريجيّ، ويبدو أنّ أوروبا لم تعد آمنة على مصيرها ممّا شجّع على إعادة نصب أشرعة الخيال من جديد، ويظهر ذلك جليًّا في تراجم الرسول التي انبعثت فيها الحياة من جديد[١].

لكن ربّما يكون الكاتب البريطانيّ جون ويكلف (John Wycliffe) (١٣٢٠-١٣٨٤م) الأوضح في بيان موضوع الربح والخسارة التي جلبها القرن الرابع عشر، وكان القسم الأكبر من معلوماته عن الإسلام مستمدّة من دائرة معارف (vinzenz)، ودائرة معارف (von beaunais)، ودائرة معارف (Ranulf Higden) والذي رسم صورة شاملة للإسلام الصاعد في العالم والساعي للسيطرة على الدنيا والممتلئ بشهوة التملّك والسلطة، بخلاف المسيحيّة التي هي عقيدة الألم والفقر، من ثمّ حاول أن يدلّل على وجهة نظره في طريقة إصلاح الكنيسة لتحقيق الانتصار على الإسلام، فشريعة النبيّ من وجهة نظره تميّزت بالاستيلاء على أشياء من نصوص العهدين القديم والجديد تدعم توجّهًا دنيويًّا ثمّ مهاجمة بقيّة الإنجيل المخالفة لمقاصدها، ثمّ إنّ النبيّ أضاف لتلك المستّلات مبتدعات من عنده، واستطاع أن يضع كلّ خصومه جانبًا عندما حرم مناقشة أيٍّ من آرائه، لكن لم يكن ذلك ما زعمته الكنيسة عندما حرّمت مناقشة عصمة البابا وسلطته المطلقة وأشار إلى أنّ أخطاء الإسلام لا يمكن أن تصحّح إلّا بالتبشير الناجح المقترن بإصلاح الكنيسة[٢].

---

١. م. ن، ١٢٢.

٢. م. ن، ١٢٢.

أظهر تطوّر الأحداث في القرن الخامس عشر أنّ على أوروبا المسيحيّة القيام بعمل ما لمواجهة الإسلام، فعندما كتب ويكلف (Wycliffe) أعماله كان ما يزال ممكنًا النظر إلى الإسلام باعتباره خطـرًا أخلاقيًّا فقط، وليـس عامل تهديد مادّيّ للوجود الغربيّ؛ ولهذا اسـتطاع أن يزعم عدم وجود فرق بين رجال الكنيسـة والمسلمين؛ إذ لم يكن قد مضى على وفاة ويكلف خمس سنوات عندما انهار الصربيّون أمام الزحف العثمانيّ[١].

لقد ترك العثمانيّون أثرًا كبيرًا في توسـيع هوّة البون التي تفصل بين الإسلام والمسيحيّة، لا سيّما بعد الهزائم التي أوقعوها بالأوروبيّين؛ ممّا جعل أوروبا تعمق من كراهيّتها لتاريخ الإسلام معتبرة أنّ محمّدًا كان معتادًا على غزو الآمنين وسـبي النسـاء[٢]، لقد شهد القرن السادس عشر ظهور مصنّفات تُعنى بتاريخ الإسلام من خلال قراءة لتاريخ الأتراك، ففي العام ١٥٧٥م صدر في لندن كتاب التاريخ البارز للسراسنة (A Notable History of the Saracens) لتوماس نيوتن (Thomas Newton)، ومـن المصنّفات الأخرى يندرج عمل الكاتب الإنكليزيّ جون فوكس (John Foxe) (١٥١٥–١٥٨٧م) الذي أفـرد ١٠٠ صفحة من الفصل الرابع من كتابه تاريخ الأتراك (History of the Turks) وجّه خلالها نقدًا عنيفًا للإسلام والنبوّة[٣].

وفي منتصـف القرن السـادس عشر، بدأت تشـيع لهجـة التخوين والاتهـام المتبادل بين الأطراف المسـيحيّة المتخاصمة والمتنافسـة. ففي أواخر القرن السادس عشر الميلاديّ، صنّف الأديب الإنكليزيّ وليم رينولد (William Rainolds) ديوانًا شعريًّا (Calvino Turcismus) نظر فيه إلى أنّ كلًّا من الكالفينيّة والإسـلام يجتمعان على نيّة تحطيم المسيحيّة، فكلاهما ينكر ألوهيّة المسيح وأنّ إنجيل كالفن ليس أفضل من القرآن، لكنّه أكثر بغضًا[٤]، إنّ هذه النظرة تعدّ تطورًا في الخطاب الدينيّ إزاء الإسلام، فقد أضحى الإسلام عقيدة توازي عقيدة مسيحيّة منشقّة بعد أن كان في الماضي عبادة شيطانيّة أو وثنيّة، لا سيّما وأنّ مارتن لوثر معاصر رينولد (Rainolds)، قد

١. م. ن، ١٣٠.

2. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 45.

3. Ibid, 45.

4. Ibid, 46.

وضع المسلمين والبابا في سلّة واحدة، معتبرًا أنّ الأتراك هم الشيطان الأسود بالنسبة للشرق، أمّا البابا المنافق فهو شيطان الغرب، وعلى الرغم من عبارته القروسطيّة السمجة (المحتال) التي وردت بحقّ الرسول ﷺ إلّا أنّه اعترف بصلاح منظومة المسلمين القيميّة المتمثّلة باعتزالهم لشرب الخمور وحياة التكلّف واحترامهم لإمبراطورهم[1].

ثالثًا: الخطاب التخصّصيّ وعصر الصراعات السياسيّة والأيديولوجيّة

يمثّل بداية القرن ١٧ الميلاديّ فجر الكتابة البريطانيّة الحديثة، وذلك من خلال تبنّي العالم المسيحيّ للروح العلمانيّة في قراءة تاريخ العالم والتي جعلت من الإنسان محورًا لأحداث العالم بدلًا عن القوّة الإلهيّة، حينها تصبح البراهين التاريخيّة بوتقة تتشكّل من انصهار الفواعل مع التجارب، وسرعان ما بات الاهتمام واسعًا بالمصادر والدراسات اللغويّة[2]، لقد رسم الإسلام على هيئة نموذج قبيح يتعارض ويتناقض كلّيّة مع النموذج المثاليّ للمسيحيّة بوصفها ديانة الحقيقة التي تتميّز بالأخلاق الصارمة وروح السلام، وبأنّها عقيدة تنتشر بالإقناع وليس بقوّة السلاح، وفي الوقت ذاته وضمن هذا المنحى أيضًا نسبت إلى الإسلام بعض الرموز المسيحيّة التقليديّة، ولكن بدلالات سلبيّة جديدة مثلًا: صورة الحمامة رمزٌ لروح القدس في المسيحيّة[3]، وقد أشار واتر رالي (Walter Raleigh) في كتابه تاريخ العالم (The History of the World) عام ١٦١٨م إلى حكاية أسطوريّة شاعت في بريطانيا مفادها أنّ الرسول ﷺ درّب حمامة لتنقر حبوب القمح من أُذنه بغية إقناع العرب أنّ تلك الحمامة هي رسول الروح القدس الذي كان يبلغه الوحي الإلهيّ[4]، وقد انتشرت هذه الحكاية لدرجة أنّها ظهرت في مسرحيّة هنري السادس لوليم شكسبير:

(Henry VI Charles): Was Mahomet inspired with a dove? Thou with an eagle

1. Ibid, 45.
2. Netton, Orientalism Revisited: Art, Land And Voyage, 5-10.
3. Blanks and Frassetto, Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe, 66.
4. Raleigh, The History of the World, 178.

art inspired then.

«كيف أنّ الملك كارل الثاني يتوجّه إلى جان دارك صارخًا: ألم تلهم الحمامة محمّدًا أمّا أنت فإنّ النسر ربما ألهمك»[١].

وفي مسرحيّة «محمّد المنتحل» للكاتب جيمس ميلر في العام ١٧٥٣م أشار إلى أنّ الرسولﷺ لم يكن لديه وحي إلهيّ، ولم يبعث من السماء، وإنّما دعوته هذه جاءت لرغبة جامحة وطموح شديد لطلب الرئاسة والمال تحت ستار الدين، مصوّرًا الرسولﷺ بأنّه زعيم لجماعة من قطّاع الطرق من خلال محاورة بين شخصيّة محمّد المزعومة في مسرحيّته وشخصيّة فرعون[٢].

ويمكننا الإشارة إلى مبلغ التهكّم بشخصيّة الرسول في الأدب الإنكليزيّ في المثل الشائع: إذا لم يأت الجبل إلى محمّد فإنّ محمّدًا يذهب إلى الجبل[٣].

وهي عبارة مجازيّة ظهرت لأوّل مرّة في كتابات فرانسيس بيكون التي نشرها في عام ١٥٩٧م، ومضمون هذه الفريّة أنّ محمّدًاﷺ لمّا دعى الناس إلى الإيمان به طلب من التلّة أن تتقدّم نحوه، فلمّا لم تتحرّك التلةّ نحوه تحرّك هو باتجاهها[٤].

لكن أشدّ ما قيل عن الرسولﷺ ما جاء على لسان الشاعر الإسكتلنديّ وليام دينبار (William Dunbar) المولود ١٤٦٠م في قصيدته السبع الموبقات التي اشتمل عليها وصف الأشخاص الراقصين في الجحيم الذين خرجوا عن سلطة الكنيسة، وقد أشار إلى أنّ السراسنة الذين يعبدون إلهًا للشرّ كان يدعى ماهون[٥].

أمّا عن وفاتهﷺ، فقد كثر الحديث عن ذلك في الموروث البريطانيّ، ولا سيّما قصّة ضريحه المعلّق بين السقف والأرض في المدينة بواسطة أحجار مغناطيسيّة والتي باتت مثلًا للتعبير أنّ

1. Shakespear, Henry VI, 13: 27.
2. Dibdin, The London Theatre, Collection of the Most Celebrated and Dramatic Pieces, xvi: 176-218.
3. If the mountain won't come to Muhammad then Muhammad must go to the mountain.
4. Manser, The Facts on File Dictionary of Proverbs, the Facts on file, 135.
5. Laing, The Poems of William Dunbar, 2: 254.

أي أمر مشكوك فيه يعبّر عنه بتابوت محمّد المعلّق[١].

لكن هذا الأمر لا يبدو جليًّا في كتابات الفترة الأولى من القرن السابع عشر، حينما طبع في لندن عام ١٦١٠م كتاب (علاقات الرحلة) (A Relation of a Journey) للشاعر والرحّالة البريطانيّ السير جورج سيدني (George Sandys) (١٥٧٧-١٦٤٤م) الذي اشتمل على أربعة أقسام قدّم فيه وصفًا عامًّا للدولة العثمانيّة ومصر والأراضي المقدّسة والجزر الإيطاليّة البعيدة، وبسط فيه الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ بنحو مجحف، باعتباره شخصًا تظاهر بأنّه اختير بفضل العناية الإلهيّة لتبليغ شريعة جديده لأبناء الجنس البشريّ وأن يخضع العالم لطاعته بواسطة استخدام السلاح[٢].

لقد شهد القرن السابع عشر تزايدًا في عدد المصنّفات البريطانيّة المختصّة بتاريخ الأتراك وحيثيّات الإسلام[٣]، كما ردّدت الأفكار الشائعة القديمة مِن قِبل أكثر الكُتّابِ البريطانيّين في هذه الحقبة، برؤية تتماشى مع التصوّرات الجديدة عن الإسلام، كما ورد في كتاب (التاريخ العام للأتراك (Historie Genrral Turkes) عام ١٦٠٣م لمؤلّفه ريتشارد نولدز (Knolles Richard) (١٥٤٥-١٦١٠م) الذي يعدّ سجلًّا حافلًا لأعمال القسوةِ والتعذيبِ الوحشيّة العُثمانيّةِ، وقد اقتفى نولدز أثر الكُتّابِ السابقينِ، في نظرتهم للإمبراطوريّةِ العُثمانيّةِ على أنّها الإرهاب الأعظم في العالمِ، وأنّ الإسلام عمل شيطانيّ ومحمّد نبيّ مزيّف[٤]، كما صدر في عام ١٦٥٦ لفرانسيس أوسبورن (Francis Osborn's) كتاب العلاقات السياسيّة لحكومة الأتراك (Political Reflections on the Government of theTurks) وصدر كذلك في عام ١٦٦٨م في لندن كتاب

1. The British Controversialist, And Literary Magazine, publisher Houlston and Stonemen, 3: 206.
2. George, Relation of a Journey Begun An: Dom Fovre bookes. Containing a description of the Turkish Empire, of Ægypt, of the Holy Land, of the remote parts of Italy, and islands adjoining Printed for W. Arrett, London, 1610, 52-53.
3. Curtis, Orientalism and Islam European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India, 34.
4. Netton, Orientalism Revisited: Art, Land And Voyage, 5-7.

«أوضاع الإمبراطوريّة العثمانيّة (Present State of the Ottoman Empire) لـ بول ريكوتس (Paul Rycaut's) (١٦٢٩–١٧٠٠م)، وقد ظهر في هذين الكتابين نقد عنيف للسيرة النبويّة والإسلام[1].

ويبدو أنّ الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ في هذه المرحلة أخذ بُعدًا سياسيًّا نتيجة ظهور العثمانيّين الأتراك بوصفه خطرًا حقيقيًّا يحدق بأوروبا منذ القرن الخامس عشر، قبل هذه المرحلة نظر الأوروبيّون إلى الإسلام والنبوّة من منظار دينيّ لاهوتيّ ذي طابع خياليّ متعسّف، بيد أنّ ظهور المارد العثمانيّ جسّد هذه الصورة الكلاسيكيّة المشوّهة عن الرسول والإسلام على أرض الواقع، وباتت طموحات السلاطين الأتراك وسياستهم التوسّعيّة هي التمثّل الجديد لصورة محمّدﷺ ودينه في الخطاب البريطانيّ؛ لذلك قلّما نجد مصنّفًا في القرن الخامس عشر وما تلاه لا يحمل بين دفّتيه أسلوب المزامنة المفاهيميّة المتمثّلة «صورة محمّدﷺ = صورة الأتراك التوسعيّين» على الرغم من الاختلافات العرقيّة والزمكانيّة بين محمّدﷺ والعثمانيّين، ومن ثمّ أمست صورة النبوّة المشوّهة في أوروبا أداة للتعبئة العسكريّة والمفاهيميّة ضدّ العثمانيّين، بعد أن كان يروّج لها من أجل حماية أوروبا من استشراء الإسلام، وفي ذلك يشير برنارد لويس: «إنّ مسيحيّة العصور الوسطى انكبّت لدراسة الإسلام بغية التّشكيك به وحماية المسيحيّين من إلحاد المسلمين وحمل المسلمين على اعتناق المسيحيّة؛ لذاك تجد أنّ أغلب الباحثين هم من طبقة الكهنة ورجال الدين خلقوا إطارًا أدبيًّا يتعلّق بالدين ونبيّه وكتابه، وقد حملت الجدالات الدينيّة نبرة بذيئة ترمي إلى تشويه صورة الإسلام وحماية المسيحيّة بدلًا عن التبليغ، وعلى الرغم من ظهور بعض الأبحاث المتناثرة إلّا أنّ سمة التعصّب والتحيّز ظلّت طاغية عليها، وقد لعب التجديد دورًا في التقليل من حدّة النظرة التقليديّة للإسلام حينما عكف الكتاب الكاثوليك إلى تشبيه البروتستانتيّين بمحمّد»[2].

ويبدو أنّ الإسلام أضحى جزءًا من حالة الجدل الدينيّ المحتدم بين الكاثوليكيّة

1. Ibid, 34.

2. Lewis, Islam and West, 85-86.

والبروتستانتيّة في القرن السابع عشر، لا سيّما حول مسألة أصل المسيحيّة وطبيعتها، إذ أصبح الإسلام دلالة تنكيل يستخدمها كلّ معسكر في تقريع غريمه وتشبيه بأنّه يحوز على مبادئ الإسلام نفسها وأتباع وثنيّين على شاكلة الأتراك[1].

لكن سرعان ما ظهرت سمة جديدة في الكتابة عن الإسلام جلبتها بواكير عصر التنوير، فأصبحت الدراسات الأكاديميّة مهتمّة بمقارنة الأديان، لا سيّما بعد أن لفت الفيلسوف البريطانيّ روبرت بويل (Robert Boyle) (١٦٩١-١٧٢٧م) إلى ضرورة النظر بجديّة إلى مقارنة محتويات كلًّا من اليهوديّة والإسلام، مؤسّسًا بذلك روحًا نقديّة جديدة[2]، على أثرها تأسّس في جامعة كامبردج كرسيّ اللغة العربيّة في عام ١٦٣٢ من قبل تاجر أقمشة من لندن يدعى ثوماس آدم (Thomas Adams) ومن ثم شرّع وليم لويود (William Laud) (١٥٧٣-١٦٤٥م) بتأسيس كرّاس العربيّة في جامعة أكسفورد، الذي تمكّن من أن يحرّر رسالة ملكيّة إلى شركة الهند الشرقيّة المتواجدة في الشرق يحثّهم فيها على إرسال المخطوطات العربيّة والفارسيّة، وبذلك تمكّن من حيازة أكثر من ستمئة مخطوطة وعدد من صناديق العملات الشرقيّة[3].

لكن أقدم كتاب صنّف بإنكليزيّة يحمل على غلافه اسم الرسولﷺ ظهر في هذه المرحلة بريشة لوليم بيدويل (William Bedwell) (١٥٦٢-١٦٣٢م) والموسوم «الكشف عن محمّد المنتحل والقرآن»[4] الصادر في لندن في ١٦١٥م هذا المصنّف عكس عنوان غلافه ما ينطوي عليه محتواه من التعصّب والاجترار لنفس الأفكار القديمة، وقد نظر بيدويل إلى مقام الرسولﷺ على أنّه شخص مغرّر به وأنّ القرآن في تصوّره كتاب للزندقة، أسّس بيدويل آراءه بناءً على ترجمته للقرآن الكريم التي تعدّ أوّل ترجمة إلى اللغة الإنكليزيّة من اللغة اللاتينيّة[5]، كما تمكّن بيدويل من

1. Curtis, Orientalism and Islam European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India, 34.
2. Quinn, The Sum of all Heresies: The Image of Islam in Western Thought, 56.
3. Ibid, 64.
4. A Discovery of the Impostures of Mahomet and of the koran.
5. Hamilton, William Bedwell the Arabist 1563-1632, 39, 67.

الاطّلاع على بعض المخطوطات العربيّة والمعاجم اللغويّة المترجمة إلى اللاتينيّة[١].

وقد اقتفى تلميذه إدوارد بوكوك (Edward Pococke) (١٦٠٤-١٦٩٠م) أثره وصبّ اهتماماته على دراسة اللغتين العبريّة والعربيّة، فهو الكاتب الوحيد في عصره الذي حاز على فرصة الاطّلاع على المصادر الإسلاميّة الأصليّة، وقد أصدر في عام ١٦٥٠ كتابه (لمع من تاريخ العرب[٢] (Specimen Historiae Arabum) وهو ترجمة لكتابات ابن العبري وكتابات أبو الفدا، وأضاف عليها تعليقات باللغة اللاتينيّة[٣]، كما قام بوكوك أيضًا بترجمة حياة محمّد من العربيّة إلى الإنكليزيّة[٤]، ولم تخلُ هذه الترجمة من المغالطات القديمة والمتمثّلة بدعوى أنّ الإسلام دين زائف[٥].

ويشير آرثر جفري إلى أنّ كتّاب عصر النهضة اعتمدوا في كتاباتهم عن السيرة على المصادر العربيّة الأصليّة التي باتت متاحة في الترجمات اللاتينيّة وأغلب هذه الأعمال كانت معادية بشكل مرير وذات أحكام تعسّفية مسبقة الحُكْمِ[٦].

وجدير بالإشارة أنّ الخطاب الإنجليزيّ حمل بين دفّتيه نبرة عنصريّة عند الحديث عن قضايا الإسلام والمسلمين، فكان النعت المفضّل لدى الكتّاب البريطانيّين عند حديثهم عن المسلمين في القرون الوسطى هو (Moors)، هذه الكلمة تحمل بين طيّاتها دلالات متعدّدة، لكنّها كانت تُستعمل للدلالة على العرب البدو البرابرة أو العرب الأفارقة[٧]، كما يرِد لها دلالة في قاموس (Dictionary of Phrase and Fable) بمعنى أبناء هاجر زوجة إبراهيم[٨] وهذا المعنى يوازي المدلول السابق لمصطلح (سراسنة) (Saracens) أو عبيد سارة، ويمكننا أن نلمس ذلك في

1. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 65.
2. Lewis, Islam and west, 90.
3. Pococke, Specimen Historiae Arabum, ii-xiv.
4. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 65.
5. Netton, Orientalism Revisited: Art, Land And Voyage, 5-7.
6. Arthur, The Quest of the Historical Muhammad The Muslim World, 332.
7. Society for the Diffusion of Useful Knowledge, The Penny Cyclopaedia, 1: 328.
8. Brewer's Dictionary of Phrase and Fable, 430.

كتابات الشـاعر روبرت بـارون (Robert Baron) (١٦٣٠-١٦٥٨م) في الفصل الثالث من مسرحيـة ميرزا (Mirza) التي عرضت في لندن عـام ١٦٥٥م في معرض حديثه عن القرآن في الفصل الثالث بقوله:

«Al Coran is a history of Mahomet authentique among the Moores as the gospel among us Christians».

«القرآن هو التاريخ الموثق لمحمّد بين أتباعه، كما يمّثل الإنجيل بالنسبة لنا نحن المسيحيّون»[1]، وقد أشـار بارون أيضًا إلى أنّ الرسول ﷺ قد استعان في نظمه للقرآن بطبقة العبيد المسيحيّين في مكّة الذين أحاطوا بمعرفة مشوشة عن العهد الجديد[2].

وفي العـام (١٦٣٧م/ ١٠٤٧هـ)، صدر في لندن كتاب «حياة محمّـد ووفاته» (The Life and Death of Mahomet) لولـتر رالي (Walter Raleigh) (١٥٥٢-١٦١٨م)، والذي اعتقد بـأنّ محمّدًا ﷺ ذهب إلى المدينة غازيًا وأخذها بعنوة السـيف، ثمّ لم يلبث أن يناقض نفسـه بعد صفحات قلائل من كتابه ليقول إنّ محمّدًا دخل المدينة سلمًا[3].

أمّا ألكسندر روز (Alexander Ross) (١٥٩٢-١٦٥٤م)، فقد فرغ من ترجمة نسخة القرآن الكريم من الفرنسـيّة إلى الإنكليزيّة في العام ١٦٤٩م هذه الترجمة التي عمد روز من خلالها إلى تشـويه العبارات وتحريفها بنحـو فظّ وبنوايا عدائيّة[4]، كما تمكّـن روز أيضًا من تصنيف كتاب «بانسـيبيا أو عـرض لتاريخ أديان العـالم (Pansebeia, or View of all the Religions in the World) في العام ١٦٥٢م والذي أفرد القسم السادس منه للحديث عن السيرة النبويّة وتاريخ المسـلمين من العرب والفرس والأتراك، وقد اشـتمل كتابه على جانب من الموضوعيّة مقارنة بمعاصريه في عرضه لشـخصيّة الرسـول ﷺ، وقد أنكر الاعتقاد السـائد بأنّ محمّدًا هو المسيح

1. Birchwood, Staging Islam in England Drama and Culture, 88.
2. Ibid.
٣. وزان، صورة الإسلام في الأدب الإنجليزيّ دراسة تاريخيّة نقديّة مقارنة، ١: ٧٤٣.
4. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 66.

الدجّال، مشـيرًا إلى أنّه لم يكن يومًا عدوّ المسـيح الذي ورد في سفر الرؤيا[1]، خلافًا لما ذهب له بيتر هيلـين (Peter Heylyn) (١٥٩٩-١٦٢٢م) في كتاب الكوزموغرافيا (Cosmographie) الذي صدر في عام ١٦٥٢ والذي اعتقد بأن محمّدًا ﷺ تمكّن من بناء إمبراطوريّة بفعل ما استحوذ عليه من مبادئ شيطانيّة[2].

وفي عام ١٦٧١م انبلج إلى حيّز الدراسات الاستشراقيّة أوّل فجر لعمل موضوعيّ منصف من سيرة الرسول في التاريخ البريطانيّ حمل عنوان «الاعتبار في نهوض وتنامي المحمّديّة والدفاع عن محمّد ودينه من مطاعن المسيحيّين»:
An Account of the Rise and Progress of Mahometanism, and a Vindication of Him and His Religion from the Calumnies of Christians.

للفيزيائيّ والكاتب البريطانيّ هنري ستوب (Henry Stubbe) (١٦٣٢-١٦٧٦م) والغريب في الأمر أنّ هذا الكتاب لم يرَ النور إلّا في عام ١٩١١م، وقد بسـط سـتوب من خلاله إلى عمل مماثلة بين الإسلام والمسيحيّة مقرًّا بحقيقة دين الإسلام، منكرًا جميع الاتهامات القديمة، معتبرًا محمّدًا ﷺ أعظم مشرّع عرفته البشريّة[3]. لقد مثّل ستوب جزءًا من تقليد فكريّ متنامٍ آنذاك قائم على نقد التناقضات الفكريّة التي تحملها مسألة التثليث المسيحيّة، هذا التقليد رجع فيه أصحابه للتفتيش عن جذور التوحيد الأصليّة في تاريخ الشرق الأوسط[4].

ولم تلبث حتى ظهر في العام ١٦٧٠ كتاب لم يخل من التهكّمات القديمة جاء عنوانه: «عقوق الوثنيّة والمحمّديّة» (Of the Impiety and Imposture of Paganism and Mahometanism) للراهب البريطانيّ إسحاق بارو (Isaac Barrow) (١٦٣٠-١٦٧٧م)[5].

1. Ross, Pansebeia, or, A view of all religions in the world..., 116-128.
2. Almond, Heretic and Hero: Muhammad and the Victorians, 9.
3. Curtis, Orientalism and Islam European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India, 35.
4. Force, &others, Newton and Religion: Context, Nature, and Influence Kluwer academic publisher, 156.
5. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 68.

إنّ السمة الأبرز في الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ أبان هذه المرحلة من عصر التنوير التأكيد على الصورة التقليديّة المشوّهة عن الرسول ﷺ على الرغم من المحاولات النقديّة الخجولة التي شرع بها بعض الباحثين، والتي لم تؤتِ أُكُلَها؛ لأنّ العقليّة البريطانيّة لم تبلغ يومها حدّ الإنسلاخ الفعليّ عن الموروث الكلاسيكيّ المثيولوجيّ كما يبدو لنا، وهذا ما دلّت عليه عناوين المصنّفات التي كانت تحمل على أغلفتها عبارة (المنتحل أو الدجّال) (imposter) للدلالة على سيرة الرسول ﷺ التي أضحت في هذا العصر مادّة للأدب والفنّ والمسرح والدراما، فضلًا عن الخطاب المسيحيّ الكلاسيكيّ. وقد اتّسمت كتابات هذه المرحلة بأنّها قدّمت للقارئ أحكامًا مسبقةً قبل أن تشرع بسرد تفاصيل السيرة النبويّة بين ثنايا متونها لتحاكي ما استهلّ عليه عنوان المصنّف في المقام الأوّل، وبذلك يخيّل لنا أنّ المنهج العكسيّ كان الملمح الأوّل في تطوّر منهج كتابة السيرة النبويّة في بريطانيا.

ويشير ألموند (Almond) أنّ عبارة المنتحل (Imposter) ظلّت التعبير العلميّ الملازم لاسم محمّد ﷺ لتميّزه عن أسماء من لديهم التسمية نفسها حتّى وقت قريب من العهد الفيكتوريّ، ومن أمثلة ذلك ما ورد في دائرة المعارف الإنكليزيّة (English Encyclopedia) لعام ١٨٠٢م، ودائرة المعارف البريطانيّة (Britannica) للأعوام ١٨١٧م و١٨٣٢م[1]، لكنّ أعنف نقد تعرّضت له سيرة الرسول ﷺ ظهر في عام ١٦٩٧م على يد الكاتب البريطانيّ همفري برديو (Humphrey Prideaux) (١٦٤٨–١٧٢٠م) في كتاب كان عنوانه يحمل دلالة واضحة «طبيعة الانتحال الصادقة تظهر كاملة في حياة محمّد» (The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of Mahomet) وصف بريدو رسول الله ﷺ بعبارات قاسية متعصّبة، ومنها: «خلق محمّد دينًا ظنّ بأنّه بات مستساغًا، لكنه لا يعدو أن يكون مزيجًا مضطربًا من اليهوديّة وهرطقة مسيحيّة كانت منتشرة في الشرق آنذاك وطقوس وثنيّة قديمة عند العرب، من ثمّ شرع بإباحة كلّ أصناف الغرائز الشهوانيّة بشتّى أشكالها بغية اجتذاب أصناف البشر لاعتناق دينه... ولما كانت تعصف به نوبات المرض فتسقطه صريعًا، لكنّه كان يدعي بأنّها غشية الملك جبريل عندما

1. Almond, Heretic and Hero: Muhammad and the Victorians, 11.

يقبل عليه بوحي من الربّ»[1].

رابعًا: عصر الانفتاح على التراث الإسلاميّ (المرحلة الاحترافيّة)

في مطلع القرن الثامن عشر، برز اسم سيمون أوكلي (Simon Ockley) (١٦٧٩–١٧٢٠م) قسّ مدينة كامبرج الذي درس العربيّة وأصدر في العام ١٧٠٨ كتابه «غزو السراسنة لسوريا وفارس ومصر» (The Conquest of Syria, Persia, and Aegypt by the Saracens)، وفي العام ١٧١٨م أصدر كتابه «تاريخ السراسنة» (The History of the Saracens) وقد اعتمد أوكلي في تصنيفهما على كتاب فتوح الشام للواقدي، وتعدّ مصنّفات أوكلي أوّل محاولة شاملة للكتابة عن تاريخ العرب والمسلمين باللغة الإنكليزيّة[2] ويبدو أنّ صورة الرسول بدت مشوّهة في كتاباته؛ لأنّه سار في أثر برديو في تصويره لطبيعة الإسلام وسيرة الرسولﷺ[3].

وتأتي مؤلّفات جين كانيه (Jean Gagnier) (١٦٧٠–١٧٤٠م) البريطانيّ ذي الأصول الفرنسيّة وأستاذ اللسانيّات الشرقيّة في جامعة أكسفورد والذي شرع بتصنيف سيرة لمحمّد في ثلاثة أجزاء بالاعتماد على أبي الفداء، علاوة عن ترجمته لكتاب أبي الفداء «المختصر في تاريخ البشر» عام ١٧٢٣م إلى اللغة اللاتينيّة، وباتت سيرة النبيّ المكتوبة باللغة العربيّة متاحة لأوّل مرّة في أوروبا، كما شرَع جانيه بتصنيف سيرة للرسول سنة ١٧٣٢م، أشار في مطلعها إلى أنّه لم يرغب من تصنيف كتاب يستعرض فيه حقيقة حياة محمّد بقدر تعلّق الموضوع بإظهار البواعث التي أدّت إلى إيمان العرب به، وقد أصبح كتابه عن حياة محمّد مرجعًا أساسًا في تاريخ السيرة في أوروبا حتّى ظهور كتاب فايل (Weil Mohammed der Prophet) محمّد النبيّ في عام ١٨٤٣م، ليعلن بداية مرحلة جديدة في دراسات السيرة[4].

خصّص جانييه مقدّمة كتابه بصفة رئيسة لتفنيد الآراء المتحاملة للكاتب الفرنسيّ هنري

1. Prideaux, The True Nature of Imposture, 10-13.
2. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 69.
3. Ockley, History of the Saracens, 2: xxxv.
4. Lewis, Islam and West, 90.

بونافلييه (Henri de Boulainvilliers) (١٦٥٨-١٧٢٢م) الذي صُنّف في باريس عام ١٧٣١م كتابه (تاريخ العرب مع حياة محمّد (Histoire des Arabes avec la Vie de Mahomet)، لقد تمتّع جانيه في هذا العمل بكثير من المهارة والذوق، لدرجة أنّ كتابه عدّ من أفضل ما كتب عن سيرة محمّد، وقد اغترف منه كثير من المؤرّخين، لكن رغم ذلك لم يكن جانيه منصفًا للرسول إنصافًا تامًّا، فقد وصفه بأنّه أكثر الناس شرًّا، وقد علّق بفانمولر على ذلك بقوله «من هذا يتبيّن لنا أنّ الأمر هنا ليس له إلّا تفسير واحد هو توجيه القارئ من بادئ الأمر لقراءة الكتاب في ضوء هذه الأحكام وبهذا يؤثّر جانيه على القارئ ويقيّد حريّته ويقلّده بذلك نظارة سوداء تلوّن كلّ ما تقع عليه عينه بهذا اللون القاتم، وهذا ليس من العلم والإنصاف، ولا يمتّ إلى الأمانة العلميّة بسبب»[1].

وفي عام ١٧٣٤ وبعد خمس وثمانين عامًا من ترجمة روس (Rose) ظهرت ترجمة جديدة للقرآن على يد البريطانيّ جورج سيل (George Sale) (١٦٩٧-١٧٣٦م) اشتملت على حواشٍ وتعليقات مقتبسة من نسخة القرآن اللاتينيّة الجدليّة المضادّة للإسلام والتي صدرت في روما عام ١٦٩٨م للدوفيشيو ماراشي (Lodovico Marracci) (١٦١٢-١٧٠٠م)، قدّم سيل نبذة عن حياة محمّد، لم يخرج فيها عن النظرة التقليديّة السلبيّة إزاء النبوّة، لكنّه اختلف عمّن سبقه بأنّه أشاد بالقيم الأخلاقيّة التي يحملها محمّد، وهذا يعدّ تطورًا في نظرة البريطانيّين إلى شخصيّة محمّد، حتّى إنّ إدوارد جيبون ذهب إلى عدّه نصف مسلم[2]، وفي ذلك نورد اقتباسًا من أقوال سيل في حقّ الرسول ﷺ:

«Mahomet …he was a man of at least tolerable morals, and not such a monster of wickedness as he is usually represented…»[3]

«محمّد... رجل ذو أخلاق رفيعة وليس وحشًا أو شرًّا كما ينظر: إليه في العادة».

لقد جلب القرن الثامن عشر مع تحوّلات في طبيعة الخطاب الاستشراقيّ إزاء السيرة

١. سيرة الرسول في تصوّرات الغربيّين فصول مختارة من كتابات المستشرق الألمانيّ جوستاف بفانمولر ترجمها وقدّم لها: زقزوق، سيرة الرسول في تصورات الغربيّين، ١٧١.

2. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 67.

3. Sale, The Koran, Commonly Called the Alcoran of Mohammed, 54.

النبويّة، حيث يقول برنارد لويس: «لقد ظهرت في كتابات عصر التنوير شـهادات إيجابيّة بحقّ محمّد على أنّه الحكيم والمتسامح والمشرّع والحاكم والمجدّد...على الرغم من إدانتهم واتهاماتهم له بالتعصّب والتلفيق[١]، ويبدو أنّ ظهور نزعة التناقض في الموروث السـلبيّ واعتماد وجهات نظر جديدة تتّسـم بالموضوعيّة في كتابات القرن الثامن عشر أدّت إلى تغيّر النظرة تجاه الإسلام لكن بنحو بطيء[٢].

شـهد القرن الثامن عشر ولادة مفكّرين نظروا إلى الرسـول والإسـلام مـن زاوية مغايرة للموروث السـائد، وهذا ما نلمسه عند الشـاعر الإنكليزيّ صمويل تايلور (Samuel Taylor Coleridge) (١٧٢٢-١٨٣٤م) الفيلسوف الإنكليزيّ ومؤسّس الحركة الرومانسيّة الإنكليزيّة، الذي قدّم في عام ١٧٩٩م قصيدة عن الرسول ﷺ عنوانها (محمّد Mahomet) وهي من الأعمال الأدبيّة المنسـيّة[٣] وتعدّ أروع ما كتب عن الرسول ﷺ في الأدب الإنكليزيّ، وتقع في أربعة عشر بيتًـا، دافع فيها عن الرسـول، واصفًا إيّاه بأنّـه النبيّ الواعظ والثائر البروتسـتانتيّ والمحارب المتحمّس الذي سحق طقوس الكفر عند وثنيّي مكّة وعند وثنيّي المسيحيّة، ناشرًا بذلك تعاليم الإنجيل الحقيقيّة للمسيح[٤].

لكـن الكاتب المسرحـيّ ولـتر سـافج لانـدروز (Walter Savage Landor) (١٧٧٥-١٨٦٤م) ذهـب إلى أنّ محمّـدًا ﷺ والقدّيس سـيرجيس كلاهمـا يطلبان الشـهرة، فالقديس سـيرجيس كان يطمع أن يظهر في القسـطنطينيّة، بينما أراد محمّد أن يظهر في سـوريا، فمحمّد ليـس بنبيّ، بل حرّم الخمر على نفسـه لما يصيبـه من صرع وإغماء، فادّعـى أنّ ذلك وحي من السماء، وأنّه حرام على المسلمين[٥]، «لكن النزعة الجديدة لم تبلغ أوجها إلّا في طروحات المؤرّخ الإنجليزيّ إدوارد جيبون (Edward Gibbon) (١٧٣٧-١٧٩٤م) في مصنّفـه «تاريخ انحدار وسقـوط الإمبراطوريّة الرومانيّـة (The History of the Decline and Fall of the Roman

1. Lewis, Islam and West, 90.
2. Quinn, The Sum of all Heresies: the Image of Islam in Western Thought, 57-58.
3. Humberto, Islam and the English Enlightenment 1670-1840, 2.
4. Coleridge, The Poetical Works of S.T. Coleridge, 2: 68.
٥. وزان، صورة الإسلام في الأدب الإنجليزيّ دراسة تاريخيّة نقديّة مقارنة، ١: ٧٤٣.

Empire) بين عامي (١٧٧٦-١٧٨٨م) الذي أفرد في القسم الخمسين من المجلّد التاسع لطبعة ١٧٨٩ للحديث عن تاريخ الجزيرة العربيّة وسيرة الرسولﷺ؛ إذ استهلّ هذا القسم بعبارته الشهيرة «استطاع محمّد باستخدام السيف في يد والقرآن باليد الأُخرى أن يقيم عرشه على أنقاض المسيحيّة وأنقاض روما[1]، وأشار في موضع آخر إلى «أنّ عقيدة محمّد خالية من الخرافات، والقرآن شهادة مجيدة على وحدانيّة الربّ[2]، كما ذهب إلى أنّ محمّدًا تفادى أن يقع فريسة لطموحه حتّى بلوغه سنّ الأربعين، ويرى أنّ طموحه السياسيّ جرفه لتبنّي منهج مغاير في المدينة، خلافًا لما كان عليه في مكّة، وسرعان ما ذهبت عنه ملامح شخصيّته المكّيّة المتسامحة بفعل هذا الطموح»[3]، ويمكن أن نحكم على مبلغ التناقض والحيرة التي بلغها كتاب هذه العصر من خلال النصّ التالي:

«إنّ الخلاصة من حياة محمّد توجب علينا أن نقيم توازنًا بين فضائله وأخطائه، وأن نقرّر عنوانًا لهذا الرجل الاستثنائيّ هل كان متحمّسًا أم منتحلًا؟...كيف يمكن لرجل حكيم أن يخدع نفسه، وهل يمكن لرجل صالح أن يخدع الآخرين؟ هل يهجع الضمير في خليط مضطرب من خداع الذات والاحتيال الاختياريّ؟ هذا الرجل الذي يشهد له صهره عليّ: بأنّه جمع كلّ الفضائل، فهو الشاعر والمحارب والقدّيس، الذي لا زالت حكمته تَشْهقُ الأقوال الأخلاقيّةِ والدينيّةِ؛ الذي وقف بفصاحته وشجاعته بمنازلات السيف واللسان منذ أن صدح بدعوته حتّى آخر طقس في جنازته الذي لم يُخذل من صاحبه الكريم وأخيه ونائبه الذي أخلص له وكان له بمنزله هارون من موسى»[4].

إنّ الإشارة إلى شخصيّة الامام عليّ عليه السلام في هذه المرحلة يدلّل بنحو لا يرقى إليه الشكّ على تطوّر جديد في قراءة سيرة الرسولﷺ ليشمل آفاقًا أوسع تستوعب شهادة الأعلام المقرّبين من الرسولﷺ، هذا التطوّر يبدو أنّه أضفى حالة من التوازن النسبيّ على الصورة الكلاسيكيّة

1. Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 9: 115.
2. Ibid, 122.
3. Ibid, 167-173.
4. Ibid, 171.

المشــوّهة، وهو يرتدّ إلى تجلّيات النزعة العقليّة التي برزت في هــذه المرحلة، زد على ذلك، فإنّ اختيار جيبون لشــهادة الإمام عليّ عليه السلام تحديدًا في صياغة خلاصتــه عن حياة محمّد صلى الله عليه وآله يقطع بأنّ الكتّــاب البريطانيّين كانت لهم أحكام وتصوّرات عــن علاقات النبيّ بأصحابه ومبلغ منازلهم الفكريّة، وهذا يدلّل على ظهور النزعة التحليليّة ذات الطابع الشموليّ في قراءة تفصيلات السيرة في هذه المرحلة النقديّة المبكرة.

وفي أواخر القرن الثامن عشر والتي تعدّ مرحلة انتقال إلى ما يعرف بالتاريخ الاســتعماريّ أو الكولنياليّ فرضت شركة الهند الشرقيّة هيمنتها على الهند واســتحوذت على القوّة من الحكّام المسلمين، صاحب التوسّع الاســتعماريّ البريطانيّ؛ إذ شهدت تبدّلًا في المواقف حيال الشرق، وفي هــذه المدّة ظهرت طائفة من رجالات الشركة من المنبهرين بالثقافة المحلّيّة في الهند والمنجز الحضــاريّ للشرق، هؤلاء كان لهم أثر بالــغ في تغيير نبرة الخطاب التاريخيّ عن الشرق، فباتت النبرة أقلّ حدّة وتهديدًا من الســابق، لكنّ السمة البارزة التي كانت عليها كتابات هذه المرحلة هي الإبقاء على حالة الأبويّة من قضايا الشرق بشكل يسهم في تعزيز السيادة البريطانيّة وتسويغ الحكم الاستعماريّ[1].

1. Netton, Orientalism Revisited: Art, Land And Voyage, 5-6.

الخاتمة

إنّ السمة الغالبة على الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ الكلاسيكيّ بشكله العامّ كان تحامليًّا معبّأً بالموروثات المثيلوجيّة للكنيسة بنحو غير مبرّر، على الرغم من التحوّلات الإيديولوجيّة والمفاهيميّة والمنهجيّة التي تمخّضت عنها الانشقاقات البروتستانتيّة أو التي أفرزتها الحقبة الكولنياليّة على الرغم من ظهور محاولات متواضعة لتقديم صورة موضوعيّة عن الشخصيّة المحمّديّة تصل إلى حدّ الندرة؛ تمثّل من وجهة نظرنا حالات فرديّة انسلخت من موروثاتها الفكريّة لتمعن النظر في الشخصيّة المحمّديّة كظاهرة إنسانيّة مستقلّة في إطارها الزمكانيّ بمعزل عن الموروثات الدينيّة أو الصراعات السياسيّة بين أوروبا وتركيا العثمانيّة؛ اذ لم تجد صورة الرسول البرّاقة طريقها إلى المخيال الشعبيّ البريطانيّ؛ بفعل التشويه التي جعلت صورته توازي صورة الشيطان، ليكون الإسلام عقابًا، بدلًا عن كونه تحديثًا قيميًّا قائمًا على الوحدانيّة، كما نلحظ أنّ التطوّرات التي شهدتها العقليّة البريطانيّة من المرحلة القروسطيّة ذات الصبغة المثيولجيّة الاعتباطيّة ومرورًا إلى المرحلة الكولنياليّة العلمانيّة لم تؤدِّ إلى حدوث تغيّر موضوعيّ عن الشخصيّة المحمّديّة في الخطاب الاستشراقيّ، بل لمسنا أنّ إرهاصات هذه التطوّرات قد تمّ توظيفها لتعزيز الخطاب التقليديّ التحامليّ من خلال تشذيبه من الموروثات المثيولجيّة المسيحيّة والتشديد على الأبعاد التقويضيّة للمنظومة الإسلاميّة من خلال نبرة أقلّ حدّة وخطاب متطوّر أشدّ وقعًا.

كما ظهر لنا أنّ هذا الخطاب اتّخذ شكلًا بانوراميًّا شموليًّا كانت إفرازاته واضحة على التدوين والفلكلور والأدب والفنّ والتأليف واقتناء المخطوطات والترجمة والقصيدة والمسرح، ونلمس أنّه ليس من شخصيّة في تاريخ بريطانيا حازت على مثل هذا القدر من الاهتمام والتأليف بقدر ما حازت عليه الشخصيّة المحمّديّة؛ ولعلّ كل ملمح من ملامح الفن والإحساس والرقيّ الإنسانيّ سخّرت بنحو منظم لتجعل من الإسلام عدوًّا مخيفًا يتسوّر بريطانيا التي يفصلها عن الإسلام بحار بعيدة، لكن ما يلوح في الأفق أنّ الشخصيّة المحمّديّة المشوّهة في الخطاب الاستشراقيّ البريطانيّ قد تمّ إنتاجها لتغدو مستحثًّا من مستحثّات التطوّر.

لائحة المصادر والمراجع

١. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط٤، ٢٠٠١م.
٢. جورافسكي، أليسكي، الإسلام والمسيحيّة، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٧م.
٣. زقزوق، محمود حمدي، سيرة الرسول في تصورات الغربيّين فصول مختارة من كتابات المستشرق الألمانيّ جوستاف بفانمولر ترجمها وقدم لها جامعة الأزهر، مجلّة مركز البحوث السنة والسيرة، العدد الثاني، القاهرة، ١٩٨٧م.
٤. سوذرن، ريتشارد، صورة الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة: رضوان السيد، بيروت، دار المدار الإسلاميّ، ٢٠٠٦م.
٥. شاخت، جوزيف، وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ترجمة وتعليق: محمّد زهير السمهوري وآخرون، تحقيق: شاكر مصطفى، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨م.
١. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط٤، ٢٠٠١م.
٢. وزان، محمّد عدنان، صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي دراسة تاريخيّة نقديّة مقارنة، ج١، الرياض، دار إشبيلية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٨م.
3. Almond, C, Philip, Heretic and Hero: Muhammad and the Victorians, Netherland, 1989.
4. Arthur, Jeffery, The Quest of the Historical Muhammad The Muslim World, vol. xvi, Issue 4, (October 1926).
5. Beckett, Katharine scarf, Anglo-Saxon perceptions of the Islamic World, UK, Cambridge University Press, 2003.
6. Birchwood, Matthew, Staging Islam in England Drama and Culture, Cambridg, 2007.
7. Blanks, David R., and Michael Frassetto, Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe, New York, St. Martin's Press, 1999.
8. Brewer's Dictionary of Phrase And Fable, New York, Harper & Brothers publisher, 1890.
9. Coleridge, Samuel Taylor, The Poetical Works of S.T. Coleridge, Vol 2, London, 1836.
10. Curtis, Michael, Orientalism and Islam European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India, Cambridge, Cambridge University Press, 2009.
11. Davidson, Thomas, Chambers' Twentieth Century Dictionary of the English Language

Pronouncing, London, Edinburgh, 1903.
12. Dibdin, Thomas, The London Theatre, Collection of the Most Celebrated and Dramatic Pieces, vol. xvi, London, Whittingham and Arliss, 1816.
13. Elgamri, Elzain, Islam In The British Broadsheets The Impact of Orientalism on Representations of Islam in the British Press, UK, Ithaca Press, 2008.
14. Force, James E., & Others, Newton and Religion: Context, Nature, and Influence, Netherlands, Academic Publisher, 1999.
15. Gibbon, Edward, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol 9, London, 1789.
16. Hamilton, Alastair, William Bedwell the Arabist 1563-1632, Leiden -Netherland, Advansment Pure Research, 1985.
17. Hourani, Albert, Islam in European Thought, Uk, Cambridge University, 1989.
18. Humberto, Garcia, Islam and the English Enlightenment 1670-1840, USA, Johns Hopkins University press, 2012.
19. Laing, David, The Poems of William Dunbar, Vol 2, Edinburgh, 1893.
20. Lewis, Bernard, Islam and West, Oxford, Oxford University Press, 1993.
21. Mansour, Atallah, Narrow Gate Churches, The Christian Presence in the Holy Land Under Muslim, USA, Hope Pub House, 2004.
22. Martin H. Manser, The Facts on File Dictionary of Proverbs, USA, The Facts on File, 2007.
23. Melrose, Robin, The Druids and King Arthur A New View of Early Britain, UK, British Library, 2011.
24. Murray, Sir James A.H., and Others, A New English Dictionary on Historical Principles: Founded Mainly on the Materials Collected by the Philological Society, vol M, Oxford, Clarendon Press, 1928.
25. Netton, Ian Richard, Orientalism Revisited: Art, Land And Voyage, USA, Routledge, 2013.
26. Ockley, Simone, History of the Saracens, vol 2, Cambridge, Cambridge University Press, 1757.
27. Pococke, Edward, Specimen Historiae Arabum, Oxford, Oxford University Press, 1806.
28. Prideaux, Humphrey, The True Nature of Imposture, Oxford, Oxford University Press,

1723.

29. Quinn, Frederick, The Sum of all Heresies the Image of Islam in Western Thought, Oxford University Press, 2008.
30. Raleigh, Walter, The History of the World, London, First Book, 1614.
31. Ross, Alexander, Pansebeia, or, A view of all religions in the world, London, Printed by T.C. for John Saywell, 1669.
32. Sale, George, The Koran, Commonly Called the Alcoran of Mohammed, Vol 1, London, Printed by C. Ackers for J. Wilcox,1795.
33. Sandys, George, Relation of a Journey Begun An: Dom Fovre bookes. Containing a Description of the Turkish Empire, of Ægypt, of the Holy Land, of the Remote Parts of Italy, and Ilands adjoining, London, Printed for W. Arrett, 1610.
34. Setton, Kenneth M, Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish Doom, Phiadilifia, American philosophical Society, 1992.
35. Shakespeare, William, and Others, The plays of William Shakespeare., Henry VI, London 1813, Vol 13.
36. Shakespeare, William, and Others, The Plays of William Shakespeare, Romeo and Juliet, Vol 20, London, 1813.
37. Shihab, Alwi, Examining Islam in the West, Addressing Accusations and Correcting, Indonisia, 2011.
38. Stubbe, Henry, Account of the Rise and Progress of Mahometanism, London, 1911.
39. The British Controversialist, And Literary Magazine, vol3, London, Publisher Houlston and Stonemen, 1860.
40. The Penny Cyclopaedia of the Society for the Diffusion of Useful Knowledge, vol1, London, 1833.
41. Thomson, Robert, The Armenian History Attributed to Sebeos, Translator: James Howard-Johnston,Oxford, Liverpool University Press, 1998.
42. Walter, Emil Kaegi, “Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest, Church History”, Vol. 38, No. 2 (Jun., 1969), pp. 139-149 (11 pages), Published By: Cambridge University Press.